الفصل الثالث

تأسيس اليهودية والصهيونية فى الأسر البابلى

تبدأ خطة الصهيونية بتملك الوطن القومى (أرض الميعاد = أرض فلسطين العربية) وقهر جيرانها لأنهم ـ فيما يزعمون ـ أعداء تاريخيون ، ثم العمل من أجل تركيز سلطة العالم الروحية والثقافية والحضارية فى صهيون ، وهكذا يتحقق الحلم الصهيونى .

الفصل الثالث

تأسيس اليهودية والصهيونية فى الأسر البابلى

يطرح د. إسماعيل راجى الفاروقى السؤال التالى : ما الصهيونية ؟ وما الدين اليهودى ؟

ويفرق د. إسماعيل الفاروقى بين مفهوم مصطلح الصهيونية المعاصر ـ على اعتبار أنها حركة سياسية قومية تنبع من الواقع السياسى لليهود ، ويعبر عنه بتجميع يهود الشتات وتوظيفهم فى (وطن قومى) بفلسطين ، ومفهومها البابلى القديم.

الصهيونية المعاصرة متأثرة بمعاصرتها لظهور القومية الأوربية ، وفكرها متأثر بفكر الحركة القومية الأوربية فى تحديد هدفها القومى ، فهى ليست مجرد حركة تواصل الموروثات اليهودية الدينية ، الزاخرة بالحنين الدينى إلى صهيون ، وبالأمل المشيحانى فى الخلاص .

إن الصهيونية المعاصرة ثورة فى تاريخ اليهود من أجل تحرير قومى بالعودة إلى صهيون ، بإرادة بعث مملكة داود على يد صهاينة سياسيين فى مقدمتهم (تيودور هرتزل) تستمد اسمها من جبل صهيون ذى القدسية الروحية التى تتعلق بها قلوب اليهود المتدينين .

لكن إذا أخذ بهذا التعريف، يظل التعريف منقوصًا ؛ لأن الصهيونية لا تقتصر على الجانب السياسى فقط ، بل يلحقه توجهات دينية وفكرية ، وتمدينية ليهود العالم .

ومن ثم فإن الصهيونية ـ بحسب تنظير منظريها لا تتفرد بتوجه سياسى لليهود، ولهذا فقد رأى بعضهم أن الصهيونية تجمع بين الدين والسياسة ، وهدف هؤلاء أن يضمنوا تعضيدًا من المتدينين اليهود لحركتهم ـ فى ضم الجماعات اليهودية المشتتة فى العالم إلى الحركة الصهيونية ـ وإن غلا الصهاينة فجعلوا من الصهيونية

عقيدة، يجب أن يتمسك بها اليهودى، أى إنهم جعلوا الصهيونية قومية دينية، وأنه يجب على كل يهودى أن يكون صهيونيًا، لكى يكون معدًا للحياة فى أرض الميعاد.

وتبدأ خطة الصهيونية بتملك الوطن القومى (أرض الميعاد = أرض فلسطين العربية) وقهر جيرانها ، لأنهم ـ فيما يزعمون ـ أعداء تاريخيون ، ثم العمل من أجل تركيز سلطة العالم الروحية ، والثقافية والحضارية فى صهيون ، وهكذا يتحقق الحلم الصهيونى .

أما اليهودية ، أو الدين اليهودى ، فهى الطقوس الدينية التى كان يمارسها سكان مملكة (يهوذا) الذين سبوا من (أورشليم إلى بابل) فى سنة ٥٨٧ ق.م، وقد أطلق مسمى الدين اليهودى لأول مرة فى المنفى البابلى، ولم يكن يعرف قبله، وهو بذلك يكاد يحمل مدلولاً جغرافيًا لا دينيا .

ومنذ مرحلة السبى البابلى فى تاريخ اليهود ، يحاول الصهاينة إرجاع فكرة الصهيونية إلى فترة دمار الهيكل ، وبداية الشتات الذى لازمه التفكير الدائم فى العودة إلى أرض فلسطين ، فأدخلوا حلم العودة فى نصوص الصلاة اليهودية وأدعيتها ، وجعلوها أصلاً فى الفكر الصهيونى ، وفى هذا التفكير الصهيونى يقول (ملتون شتينبرج) : « فى كل صلاة جماعية أو فردية ، أو حتى على مائدة الطعام بعد كل وجبة ، وعند النوم تنتهى الصلاة بالدعاء من أجل العودة إلى صهيون ، وفى صلاة يوم الفصح ، ويوم الغفران تنتهى الصلاة بأدعية من أجل العودة » (١) .

لقد أصبحت المشاعر الصهيونية لب الروح اليهودية دينيًا وفكريًا وسياسيًا ، وهى التى حافظت على العنصر العبرى فى مصر ، وحمتهم من الانصهار فى جسم الأمة المصرية ، وهى التى دفعت الفراعنة المصريين إلى كراهيتهم فى الوقت نفسه ، وطردهم من مصر .

ويقصد إسماعيل الفاروقى بالصهيونية فى الزمن القديم ـ منذ الأسر البابلى : الروح الصهيونية التى حكمت روح العنصر اليهودى على مدار تاريخهم مثل :

---

(١) انظر : محمد خليفة حسن : الحركة الصهيونية ، ص ١٨٣ ـ ١٨٥ .

إحساس اليهودى برغبة فى العداء لغير اليهود ، بزعم تفضيل الله لهم ، وإن هذا الإحساس العدوانى الحاقد على الآخرين ، قد نما عند اليهودى وتضخم فى أثناء السبى البابلى أى إن ظهور الصهيونية الأولى كان فى بابل ، ولذا كتب عزرا فى التوراة : « قال الرب لإبرام : اذهب من أرضك ، ومن عشيرتك ، ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك فأجعلك أمة عظيمة ، وأباركك ، وأعظم اسمك ، وتكون بركة ، وأبارك مباركيك ، ولاعنك ألعنه . . ، وخرجوا ليذهب إلى أرض كنعان ، فأتوا إلى أرض كنعان ، وكان الكنعانيون حينئذ فى الأرض ، وظهر الرب لإبرام وقال : لنسلك أعطى هذه الأرض » . (تكوين ١٢/ ١ ـ ٧) .

وهكذا برزت الروح الصهيونية فى تفضيل الرب لإبراهيم ونسله ، إنها روح تدعى العصمة ، كما تدعى محاباة الرب لها ، والانفراد بخاصية عهد الله ، الذى تراه عقدًا بين الله ، وشعبه المختار ، عهد يرونه ملزمًا إلى الأبد ، لأن الله بزعمهم ألزم نفسه بأن يجعلهم شعبه المفضل على سائر الشعوب إلى يوم الدين ، وكما يقول د. إسماعيل الفاروقى : « بنى عليه اليهود نظرية تفوقهم على سائر البشر ، وانفراديتهم على الناس ، وأفضليتهم على جميع المخلوقات فى نظر الخالق ، وعليه وقفوا تكوينهم أمة فريدة تقف من الأمم موقف المختار الذى يتمتع بحقوق ليست لغيره » (١) .

وهذه العنصرية التوراتية ليست منحة الرب إله العبرانيين لهم وحدهم ، ولكن لماشيتهم أيضًا دون ماشية الآخرين « قال الرب لموسى: ادخل إلى فرعون وقل له: « هكذا يقول الرب إله العبرانيين أطلق شعبى ليعبدوننى فإنه إن كنت تأبى أن تطلقهم ، وكنت تمسكهم بعد فها يد الرب تكون على مواشيك التى فى الحقل ، على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم وباء ثقيلاً جدًا ، ويميز الرب بين مواشى إسرائيل ومواشى المصريين ، فلا يموت من كل ما لبنى إسرائيل شىء » (خروج ٩/ ١ ـ ٤) .

ومع أن هذا الاختيار عمل غير واقعى ، وغير أخلاقى من اليهود ، غير أنهم

---

(١) إسماعيل الفاروقى : أصل الصهيونية ، ص ٢٠ .

تمسكوا به ، ليس لإبراهيم وحده ولكن لإبراهيم ولنسله من بعده ، فهم يزعمون أن الرب أعطاهم لأنهم عنصر مختار للرب ، لا لأنهم عنصر يتحلى بالأخلاق الحميدة ، ذلك يقول التوراة : « اسمع يا إسرائيل ليس لأجل برك ، وعدالة قلبك تدخل لتمتلك أرضهم ، بل لكى يفى بالكلام الذى أقسم الرب عليه ، لأبنائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب » (تكوين / ٢٢) .

وقال الرب لإبرام : « ارفع عينيك وانظر من الموضع الذى أنت فيه شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا ، لأن جميع الأرض التى أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد » (تكوين ١٣/ ١٥) .

وكلما يؤكدوا صحة الوعد ، فإن الناس كلهم من نوح من أبنائه الثلاثة : سام ، وحام ، ويافث ، وحام أبو كنعان [عدوهم فى العهد القديم] الذى أخطأ فى حق أبيه نوح عندما شرب نوح خمرًا فسكر وتعرى وبانت عورته فلم يسترها عنه ، فدعا عليه قائلاً : « ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته . وقال : مبارك الرب إله سام، وليكن كنعان عبدًا لهم، ليفتح الله ليافث فيسكن فى مساكن سام، وليكن كنعان عبدًا لهم » (تكوين ٩/ ٢٥ ـ ٢٧) .

بذلك تتحقق منحة الرب لأبناء يافث وسام ، كما تتحقق لعنة الرب لأبناء حام بزعمهم الذى كان منه نسل الأغيار ، وقد بقى هذا الوعد المزعوم إلى أن جاء إسرائيل = يعقوب ، ولأنه وعد أبدى كما يزعمون ، فإن الله يتغاضى عن خطايا يعقوب ويمضى فى قضاء عهده إليه ، قال الرب : « وأنت لم تَدْعُنى يا يعقوب حتى تتعب من أجلى يا إسرائيل ، لم تحضر لى شاة مُحرقتك ، وبذبائحك لم تكرمنى ، لم أستخدمك بتقدمة ، ولا أتعبتك بلُبان ، لم تشتر لى بفضة قصبًا ، وبشحم ذبائحك لم ترونى لكن استخدمتنى بخطاياك وأتعبتنى بآثامك ، أنا هو الماحى ذنوبك لأجل نفسى ، وخطاياك لا أذكرها » (أشعيا ٤٣/ ٢٢ ـ ٢٥) .

وبعد أن هاجر يعقوب وأبناؤه إلى مصر فرارا من المجاعة من أرض كنعان ، لأن جيرانهم غلبوهم عليها فرحلوا إلى مصر ، حيث كانت الحياة أرتع وأهنأ ، فلما كانوا مضطرين إلى الرحيل عن مصر ، تذكر التوراة أنهم خرجوا منها بإرادة

الرب ، لكى يدخلوا أرض كنعان مرة ثانية لاغتصابها ، على أن ينهبوا المصريين قبل الخروج من مصر ، تقول التوراة : « قال الله لموسى : وأعطى نعمة لهذا الشعب فى عيون المصريين فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة ، وأمتعة ذهب وثيابًا وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين » (خروج ٣/ ٢١ ـ ٢٢) .

إن الخروج بنصوص التوراة من مصر ـ والعودة إلى أرض كنعان ، وسرقة المصريين قبل الخروج ، كل ذلك بإرادة الرب ـ ومنحة خاصة ـ كما يدعون ـ من الله لشعب المختار .

ولهذا يرى د. إسماعيل الفاروقى أن الصهيونية الدينية نشأت فى المنفى البابلى فى بابل سنة ٥٨٦ ق.م وتحول الدين العبرى إلى الدين اليهودى ، وهذا يعنى قيام حركة تحول فى حياة العبرانيين من القومية الدينية إلى الدين القومى، ففى الدين العبرى (القومية الدينية) كان للإله شعبه المختار يؤازره ويحافظ عليه ، دون ما تدخل فى حياة الشعوب الأخرى ـ فالإله هاهنا يتدخل لحماية شعبه ، وإخضاع شعوب العالم له ، من أجل استمرار استعبادهم لشعبه المختار على مر العصور » (١) .

وفى سفر الخروج (٤/ ٢٢ ـ ٢٣) يخاطب الرب موسى قائلاً : « ثم قل لفرعون هذا ما يقوله الرب: إسرائيل هو ابنى البكر قلت لك : أطلق ابنى البكر، ولكنك رفضت إطلاقه لذلك سأهلك ابنك البكر » .

ولقد ترسخت هذه العقيدة فى عقل اليهود إلى الآن ، يقول الحاخام كوهين فى كتابه (التلمود): يمكن تقسيم سكان العالم إلى قسمين : إسرائيل من جهة ، والأمم الأخرى مجتمعة من جهة أخرى ، فإسرائيل هو الشعب المختار ، وهذه عقيدة أساسية » (٢) .

ففى بابل كان الكهنة يفسرون الأحداث التى حدثت لليهود على أنها من صنع الإله يهوه من أجل صهرهم ثم إعادتهم إلى الأرض التى منحها الله لهم بنص

---

(١) د. إسماعيل الفاروقى : الملل المعاصرة فى الدين اليهودى ، ص ٩٩ ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ١٩٨٨م .

(٢) جارودى : الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ، ص ٥٤ .

التوراة : هكذا قال السيد الرب ليس لأجلكم أنا صانع بيت إسرائيل ، بل لأجل اسمى القدوس الذى نجستموه فى الأمم حيث جئتم ، وآخذكم من بين الأمم ، وأجمعكم من جميع الأراضى وآتى بكم إلى أرضكم ، وأرش عليكم ماء طاهرًا فتطهرون من كل نجاستكم ومن كل أصنامكم أطهركم ، وأعطيكم قلبًا جديدًا ، وأجعل روحًا جديدة فى داخلكم ، وأنزع قلب الحجر من لحمكم ، وأعطيكم قلب لحم ، وأجعل روحى فى داخلكم وأجعلكم تسلكون فى فرائضى وتحفظون أحكامى ، وتعملون بها وتسكنون الأرض التى أعطيت آباءكم إياها ، فتكونون شعبًا وأكون لكم إلها » (حزقيال ٣٦/ ٢٢ ـ ٢٩) .

والصهيونية المعاصرة تتمسك بنصوص صهيونية التوراة لإقامة الوطن القومى بالدين القومى ـ مع أنها علمانية لا دينية ـ وتأخذ الشكل السياسى فيما رواه اليهود عن مملكة داود عليه السلام ، وداود نبى من أنبياء الله ـ عليهم السلام ، ومعصوم من الخطأ ، لكن التوراة تجعل له مهمة سياسية لا دينية ، فداود بنص التوراة هو محقق ميثاق الرب = العهد الملزم للرب ـ معاذ الله ـ لذرية إبراهيم عليه السلام ، وهو إقامة الكيان الصهيونى ـ الجغرافى السياسى فى مملكة داود المتحدة وعاصمتها أورشليم = القدس ، كما بدت فى الخيال الصهيونى المعاصر .

ويلخص د. إسماعيل الفاروقى هذه المزاعم فى أن كتبة التوراة جعلوها تقول:

١ ـ إن الله اختار داود وعينه بنفسه ملكًا على جميع إسرائيل ، أى فلسطين شمالاً وجنوبًا .

٢ ـ إن مملكة داود عنوان وركيزة تخليص (يهوه = الله) لشعبه ، فهى وعاء العهد الإبراهيمى المقطوع وتجسيمه .

٣ ـ إن الله اختار (أورشليم = القدس) بنفسه لتكون مسكنًا له ، فهى ليست عاصمة داود السياسية فحسب ، بل العاصمة الدينية التى لا يمكن للإله أن يسكن أو يعبد إلا فيها .

٤ ـ إن العهد الداودى ، والمملكة الداودية كلها أزلية ، فمنها فعل الملوك ، ومنها تألبت الدول ، ولن يتخلى (يهوه = الله) عنها .

٥ ـ ليس للأمم والملوك ألا يقووا على هذه المملكة فحسب ، بل عليهم جميعًا أن يخضعوا لسلطانها »[١] .

وفى التوراة قال الرب لك أن ترعى شعبى إسرائيل ، وأن تكون رئيسًا على إسرائيل ، وإقامة كرسى داود على إسرائيل ، وعلى يهوذا من دان إلى بئر سبع .

« هكذا قال رب الجنود [لداود] أنا أخذتك من المربض من وراء الغنم لتكون رئيسًا على شعبى إسرائيل ، وكنت معك حيثما توجهت ، وقرضت جميع أعدائك من أمامك ، وعملت لك اسمًا عظيمًا كاسم العظماء الذين فى الأرض ، أليس هذا بيتى عند الله » (صموئيل الثانى ٧/ ٨ ـ ٩ ، ٢٣/ ٥) .

« وضع الإله لى عهد أبديًا متقنًا فى كل شىء محفوظًا ، أفلا يثبت كل خلاصى وكل مسرتى » (إشعيا ٦/ ٨) .

ولا تزال الصهيونية المعاصرة يراودها حلم بعث مملكة داود ، فهى المثال للدولة الصهيونية المرتقبة .

ولما استولى البابليون على أورشليم = القدس فى سنة ٥٨٧ ق.م (سفر الملوك الثانى : ٢٥) وهدموا أسوارها ، وأحرقوا القصر الملكى بها ، وهدموا المعبد ، وأسروا الملك صدقيًا [الملوك الثانى ٢٥/ ٢] فى أثناء هربه وجىء به إلى بابل حيث مات فيها ، وبموته اختفت أسرة داود الملكية ، المعتبر عندهم صاحب السيادة الدنيوية .

أما الذين بقوا فى فلسطين من العبرانيين وكانوا قلة قليلة فقد ارتضوا بالعيش ضمن مجموع الناس الذين كانوا يعيشون فى أرض كنعان من دون أن يكون لهم ملوك من العبرانيين أو كهنة ، عاشوا مختلطين بكل المقيمين بفلسطين ومنهم عرب من أبناء إسماعيل ، ومن المؤابيين ، والعمونيين من أبناء أخى إبراهيم عليه السلام ، والأدوميين من نسل عيسو أخى يعقوب وتوأمه، والكنعانيين، والفلسطينيين »[٢] .

---

(١) إسماعيل الفاروقى : أصل الصهيونية ، ص ٥١ .

(٢) راجع : جارودى : فلسطين أرض الرسالات الكبرى ، ص ١٥١ ـ ١٥٦ .

واتبع هؤلاء العبرانيون الذين اختلطوا بكل هؤلاء ، حضارة الكنعانيين السائدة المسيطرة ، وتكلموا بلسانهم ، وكتبوا بخطهم ، وتعبدوا بعبادتهم ، وزاوجوهم وكانوا جميعًا لهم نفس التبعية الدينية ، والعادات الأخلاقية ، بل المصير التاريخى الذى صبغهم جميعًا .

أما الذين أسروا واقتيدوا إلى بابل ، وكان على رأسهم قادةُ العبرانيين وصفوتهم من الكهنة والتجار ، فقد دب فيهم التعصب الطبقى القديم ، فتحرك فى المنفى حتى تحول إلى تعصب عنصرى وديني ، بسبب شعورهم فى المنفى بالمذلة بعد أن كانوا سادة مجتمعهم قبل النفى ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنهم لم يقدروا على الإعلان عن عبادتهم ، كما كان الحال فى أورشليم ، ومن ثم تحرك فيهم حب صهيون ، وحب أورشليم مع العاطفة الجياشة ، والأحاسيس بحلم العودة ، فكانت البذرة الأولى لميلاد الصهيونية .

ولما سمح الملك الفارسى قورش بالعودة من الأسر البابلى بقى أكثرهم فى المنفى ، فقد حققوا ثراء ـ كما ذكر سفر حزقيال ٣/ ١٥ وإرميا ٢٩/ ٥ ـ ٦) فى المنفى ، فكانت لهم قراهم وبيوتهم وبساتينهم ، وكانوا يتنقلون بحرية .

وفى المنفى استطاع عزرا أن يكتب شريعة الرب ، وبعمل عزرا الدينى هذا عادت السيطرة لرجال المعبد [الكنيس] وفقهاء الشريعة ، والجديد هاهنا أن الديانة اليهودية لم تعد محجورة فى كتابات العبرانيين المغلقة ، بل امتزجت منذ عزرا بثقافات شعوب أخرى ، خاصة وأنهم استمروا يتناقلون تحت سيادات غريبة منذ النفى البابلى حتى منتصف القرن العشرين ، على مدار ألفين وخمسمائة سنة ، ولأنهم كانوا تحت سيادة الأغيار ، فقد كانوا مستذلين مهانين ، فأثر ذلك تأثيرًا سيئًا فى تكوينهم النفسى والعصبى ، وجعل فيهم التعصب ضد الأغيار والحقد عليهم كما زاد من تعصبهم الدينى ، وفى هذه النفس المريضة السوداء نبتت الصهيونية وأينعت ، بل صارت معتقدًا للعنصر اليهودى .

ومع أن القواعد التى أقام عليها عزرا اليهودية البابلية لم تكن جديدة ، فإنها

فى بابل قعدت تقعيدًا على القواعد التالية [1] :

أولاً : اختار الله العنصر العبرى ، ليكون شعبًا مختارًا له ، باختيار إبراهيم عليه السلام .

ثانيًا : أعطى الله ميثاقه لهذا العنصر ، وهو ليس مجرد عقد ، بل عهدًا أزليًا لا ينقض .

ثالثًا : تنفيذًا لهذا الميثاق ، أخرج العنصر العبرى من مصر ، وأنقذه من بطش فرعون ، وأهلك كل من كان يعيش بأرض كنعان من أجله ، وأسكنه فلسطين ، وملكه إياها كما زعموا .

رابعًا : اختار الله داود ، ودفعه إلى تحقيق الميثاق ، أى إلى إنشاء الدولة الداودية ، وجدد الله له العهد بأن هذه الدولة الإلهية لن تزول ، لهذا جعل الله العنصر اليهودى المختار ملكًا وأرضًا ودولة هى : هذا الملك ، وهذه الأرض ، وهذه الدولة الإلهية .

خامسًا : انحرف العنصر العبرى عن الطريق العبرى ، فأفلت منه الملك ، ولكن كيف يضيع المُلك ، ومالكه هو الله ؟!

سادسًا : على العنصر العبرى أن يتطلع إلى استرجاع هذا الملك ، بكل عقله وقلبه .

سابعًا : إن استرجاع هذا المُلك حتمى ؛ لأن العنصر العبرى لم ينحرف كله ، فقد بقيت بقية صالحة ، وبذلك يصدق عهد (يهوه) بأن ملك العنصر العبرى الذى هو ملكه لن يزول » [2] .

---

(١) يذكر د. أنيس فريحة أن الدين اليهودى انتظم فى شكله النهائى فى بابل فى القرن السادس ق.م وأن الشريعة (تثنية الاشتراع) دونت لأول مرة فى سنة ٤٤٠ ق.م (دراسات فى التاريخ، ص ١٧٩ ، دار النهار ، بيروت فى سنة ١٩٨٠م .

وأيده سهيل ديب فقال : عندما أطلق الفرس سراحهم وأعادوهم إلى فلسطين على أمل أن يكونوا حلفاءهم ، كان كل شىء جاهزًا لإعلان اليهودية الجديدة فى سنة ٤٤٠ ق.م » راجع سهيل ديب : التوراة بين الوثنية والتوحيد ، ص ٧٠، ٨١ ، دار النفائس ، الطبعة الثانية ، بيروت فى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

(٢) إسماعيل الفاروقى : أصول الصهيونية ، ص ٧١ ، ٧٢ .

ثامنًا : ضرورة تحويل أمل العودة ، واسترجاع الملك إلى إرادة فعالة مخططة ، وعمل إيجابى ، من الشعب الموعود بالأرض والملك .

تلك كانت مبادئ الصهيونية الثمانية ـ منذ الأسر البابلى ـ والمبادئ من الأول إلى السابع عقدية ، والثامن عملى يحوّل ما يدور بالعهد والعقل والقلب إلى إرادة قوية ، وعمل فاعل .

حدث كل ذلك فى الأسر البابلى ، حيث تغنى وبكى كاتب المزامير منشدًا :

لماذا رفضتنا يا الله إلى الأبد ؟!

لماذا يدخن غضبك على غنم مرعاك ؟!

اذكر جماعتك التى اقتنيتها منذ القدم .

وفديتها سبط ميراثك ، جبل صهيون هذا الذى سكنت فيه .

ارفع خطواتك إلى الخِرب الأبدية .

الكلَّ ، قد حطم العدوُ فى المقدس . (مزمور ٧٤/ ١ ـ ٣) .

على أنهار بابل هناك جلسنا .

بكينا أيضًا عندما تذكرنا صهيون .

على الصفصاف فى وسطها علقنا أعوادنا ، لأنه هناك سألنا الذين سَبَوْنا كلام ترنيمة .

ومعذبونا سألونا فرحا قائلين : رنموا لنا من ترنيمات صهيون .

كيف نرنم ترنيمة الرب فى أرض غريبة ؟

إن نسيتك يا أورشليم تنسى يمينى .

ليلتصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك ، إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى . (مزمور ١٣٧/ ١ ـ ٦) .

البكاء والدعاء لم يستغرقا وقتًا طويلاً فى المنفى ، فقد أتتهم البشرى كما صورها سفر إشعيا : « عزّوا عزوا شعبى يقول إلهكم ، طيبوا قلب أورشليم

ونادوها بأن جهادها قد كمل ، أن إثمها قد عفى عنه ، إنه قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها ، على جبل عال اصعدى يا مبشرة صهيون ، ارفعى صوتك بقوة يا مبشرة أورشليم ، ارفعى لا تخافى قولى لمدن يهوذا هو ذا إلهك ، هو ذا السيد الرب ، بقوة يأتى وذراعه تحكم له ، هو ذا معه ، وعملته قدامه كراع يرعى قطيعه بذراعه يجمع الحملان ، وفى حضنه يحملها ، ويقود المرضعات .

« هو ذا الأمم كنقطة من دلو ، وكغبار الميزان تحسب ، هو ذا الجزائر يرفعها كدُقَّة ، كل الأمم كلا شيء قدامه ، من العدم والباطل تحسب عنده » (إشعيا ٤٠/ ١ ـ ١٦) .

ومن الأمور التى ساعدت على تكوين الصهيونية ـ فوق ما تقدم ـ تكون فكرة المسيح اليهودى وتطورها فى العقل اليهودى ، وهو كما يظنون من نسل داود ، وقد بدأت هذه الفكرة فى المنفى البابلى ، ومنها انبعثت مفاهيم عنصرية أبرزت الاستعلاء العنصرى اليهودى على سائر الشعوب ، وكانت هذه المفاهيم تتنامى بصفة مستمرة على شكل تراكمى ، ينميها التراث الصوفى ، والشعبى فى الضمير اليهودى .

وتقوم فكرة (المشيح) على أن اليهود أخطؤوا فى حق الرب بعصيانه وترك شريعته ، فعاقبهم بتدمير مملكتى : إسرائيل ويهوذا بالسبى الآشورى ثم السبى البابلى ، ولكن الله لم يتخل عنهم لأنه وعدهم بالعودة ، ولكن الربانيين فسروا ذلك تفسيرًا استعلائيًا فرأوا أن شتات بنى إسرائيل تعبير عن شتات الكون كله ، وأن خلاصهم ، رمز لخلاص الكون واسترداده ، ورمز لوصوله إلى مرحلة الإصلاح والكمال النهائى » [1] . الذى لا يتم إلا بالعودة إلى أورشليم لتكون مقرًا لحكم العالم فى عصر السيادة الإسرائيلية ، كما توهم كتبة الأسفار اليهودية ، وهذا أصل الاعتقاد الذى يثيره الغالبية العظمى من مفكرى الصهيونية بادعاء أن

---

(١) د. منى ناظم : المسيح اليهودى ومفهوم السيادة الإسرائيلية ، ص ٢٠ ، الإمارات أبو ظبى ، ط ١ سنة ١٩٨٦م.

حركتهم قومية دينية ، وهم يتخذون من فكرة الخلاص والمسيح ركيزة دينية يقيمون عليها دعائم الحركة الصهيونية » (١) .

وفى البداية كما يقص سفر عاموس أن تدمير مملكتى : إسرائيل ويهوذا ، كان تدميراً شديد القسوة ، لا يرتبط بالتوبة « اضرب تاج العمود حتى ترجُف الأعتاب، وكسرها على رؤوس جميعهم فاقتل آخرهم بالسيف لا يهرب منهم هارب ولا يفلت منهم ناج » (عاموس ٩/ ١) .

ولكن عند إشعيا : أن الرب لن يترك شعبه يغنى ، لأن العهد الذى عاهدهم به ، واختارهم شعبًا له إلى الأبد ، يؤكد ذلك : « ويكون فى ذلك اليوم أن الرب يجنى من مجرى النهر إلى وادى مصر ، وأنتم تُلقطون واحدًا واحدًا يا بنى إسرائيل ، ويكون فى ذلك اليوم أنه يُضرب ببوق عظيم ، فيأتى التائهون فى أرض آشور والمنفيون فى أرض مصر ، ويسجدون للرب فى الجبل المقدس فى أورشليم» (إشعيا ٢٧/ ١٢، ١٣) ويكون خلاص الرب لشعبه .

ولقد تطورت فكرة: إن الرب لن يترك شعبه يغنى ـ عند الرابيين (الكهنة) لأن الإله يملك القوة والإرادة التى تنظم الأحداث التى تؤكد اختيار الرب لشعبه ، فيجعله سيد العالم ، تخضع له كل الأمم ، ويؤيد الرابى اليعازر بن هيركانوس ، والرابى يوسى مسكيت هذا القول : « ستصبح إسرائيل أعظم من الأمم المجاورة لها ، وأوسع منها ، كشجرة التين جذورها قصيرة ، لكنها مرتفعة إلى أعلى ، أما أبواب أورشليم فستصل إلى دمشق ، كما قال إشعيا النبى ، وتذهب شعوب كثيرة قائلة : لنذهب ونصعد إلى جبل الرب (يهوه) ، وإلى بيت إله يعقوب فيعلمنا من طرقه ، ونسلك فى سبله ، لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم تخرج كلمة الرب » (٢) .

وفى القرن ١٩ تطور مفهوم المسيح اليهودى ، مع مفاهيم الحركة الصهيونية بفتاوى صادرة من ربانىّ الصهيونية الدينية الذين وضعوا شرطًا لظهور المسيح

---

(١) د. محمد خليفة حسن : الحركة الصهيونية ، ص ٦٢ .

(٢) د. منى ناظم : المسيح اليهودى ، ص ٩٩ .

اليهودى يتمثل فى هجرة اليهود إلى فلسطين ، واستيطانها ، لتكون الخطوة الأولى لتحقيق مملكة الخلاص المسيحانية .

فى الأسر البابلى الذى استغرق نصف قرن نمت كل الأفكار الصهيونية ـ كما عبر عنها العهد القديم ، وكان ليهود المنفى الذين آثروا البقاء ، لأنهم جمعوا مالاً عظيمًا وأثروا ، وظيفة : مد الذين عادوا بالمال ـ كما يفعل يهود الشتات الغربى الآن خاصة بالولايات المتحدة ـ ليهود الكيان الصهيونى ـ وذلك من التشريعات التى شرعت فى بابل : « كل من بقى فى أحد الأماكن حيث هو متغرب ، فلينجد أهل مكانه بفضة وبذهب وبأمتعة وببهائم ، مع التبرع لبيت الرب الذى فى أورشليم) (إشعيا) .

لقد استطاع عزرا كاتب التوراة فى بابل أن يجمع يهود السبى على شريعة واحدة « أن سيروا فى شريعة الله التى أعطيت عن يد موسى عبد الله ، وأن يحفظوا ويعملوا جميع وصايا الرب سيدنا ، وأحكامه وفرائضه وأن لا نعطى بناتنا لشعوب الأرض ، ولا نأخذ بناتهم لبنينا ، وشعوب الأرض الذين يأتون بالبضائع، وكل طعام يوم السبت للبيع لا نأخذ منهم فى سبت ، ولا فى يوم مقدس » (نحميا ١٠/ ٢٩ ـ ٣١) .

عزرا هو مؤسس اليهودية كما تعرف الآن ، كما يعد مؤسس الصهيونية الدينية الأول ، والصهيونية المعاصرة ليست إلا صدى لهذا الدين الذى صنعه عزرا والكهنة الذين كانوا معه .

ولكن هل أضافت الصهيونية المعاصرة إضافات إلى الصهيونية الأولى ؟ أبرزت الصهيونية المعاصرة أسطورتى نقاء العرق ، والأرض ، أما عنصرية نقاء الجنس اليهودى فهى موجودة منذ وجد سفر التكوين : « وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساما ، وحاما ، ويافث . وحام هو أبو كنعان ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض » (تكوين ٩/ ١٨ ـ ١٩) .

وفى التراث الإقطاعى الأوربى فإن يافث أبو السادة ، وسام أبو الكهنة ورجال الدين ، وحام أبو الرقيق .

وهكذا قسم كتبة التوراة أبناء نوح تقسيمًا عنصريًا » (تكوين ١٦/٣ ـ ٩) .

ولقد استغلت الصهيونية السياسية المعاصرة هذه العقيدة لكى يتمحور حولها اليهود الطامعون فى أرض فلسطين ، هذا مع أن التوراة نفسها أثبتت عدم صدق وحدة العرق اليهودى ونقائه ، ففى سفر حزقيال يقول فى أورشليم « مخرجك ومولدك من أرض كنعان ، أبوك أمورى ، وأمك حيثية » .

وفى سفر نحميا : « رأيت اليهود الذين ساكنوا نساء آشوريات وعمونيات ، ومؤابيات ، ونصف كلام بنيهم باللسان الآشورى » (نحميا ١٣/٢٣) .

وفى الشتات كثر الاختلاط ـ كما سبق ذكره ـ وفى القرن الثامن فى سنة ٧٤٠م اعتنق شعب الخزر (التركى) اليهودية ، كما دخل فيها كثير من أصول روسية ومجرية وأوكرانية .

وفى القرن ١٣ تشتت مملكة الخزر تحت هجمات الروس والبيزنطيين والتتار (جنكيز خان) وانتشر الخزر فى بولندا والمجر واختلطوا بهم وذاب الدم فى الدم واختلطت الأعراق .

ولكن الصهاينة أسسوا أسطورة نقاء الدم اليهودى مبررًا بحمل كل اليهود فى العالم على العودة إلى فلسطين أرض الأجداد الذين انحدروا من أصلابهم ، وصار هذا الإيمان اليهودى هو السياج الذى يحيط بأرض الميعاد ، والوسيلة لحماية اليهود من الفناء فى الشعوب الأخرى ، مع تحويل اليهودية إلى قومية ، تخدم الصهيونية المنهجية ، كتب ماكس نوردو إلى هرتزل يقول : إن النقطة الوحيدة التى تنفى إلى الأبد احتمال أن يتفق اليهود الصهيونيون واليهود غير الصهيونيين هى مسألة القومية اليهودية ، فالذى يعتقد أن اليهود ليسوا قومية ، لا يمكن فى الواقع أن يكون صهيونيًا » (١) .

---

(١) جارودى : فلسطين أرض الرسالات الكبرى ، ص ٢٩٥ نقلاً عن دراسة أنثروبولوجية للنصوص الصهيونية، نشره أرثر هرتزوج ، بعنوان : الفكرة الصهيونية ، ص ٢٠٩ ، نيويورك فى سنة ١٩٥٩م .

وهكذا فإن الصهيونية جمعت اليهود الذين هجرتهم إلى فلسطين باعتبارهم قومية ، وليس باعتبارهم أناسًا يجمعهم الدين اليهودى ، إنها حركة سياسية قومية مثلها مثل كل التيارات القومية الأوربية فى القرن ١٩ ـ تجمع اليهود وتربطهم بأرض سكنها بعض أسلافهم من ثلاثة آلاف سنة ، لم يكن لهم فيها دولة إلا فى بضع سنين .